

نحن أمة اقرأ

من خلال تأملات في كتاب: (تطور الفكر التربوي الإباضي في الشمال الإفريقي من القرن الأول حتى القرن العاشر هجري)، للدكتور عبد الرحمن حجازي.

* قال الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وجاء الأمر بالقراءة لأمة أمية؛ قال الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾.

* وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم على الصفا أول مركز تعليمي في الإسلام، وكان بيته ﷺ أيضا كذلك: ﴿واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة..﴾.

* وبذلك تكوّن الجيل الذي غير مجرى العالم وأسقط امبراطورية عاتية، كانت غارقة في الجهل.

ثلة من الذين كانوا أميين يقودون العالم في ظرف وجيز قياسي، بفضل كلمة: ﴿اقرأ﴾.

* ولكن سنة الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تحايي أحدا: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

فقد بدأ حب الدنيا يستولي على القلوب فسرى الضعف والوهن، واستشرى الخلاف والشقاق والفتن، وتنافس على الكرسي المتنافسون؛ فأريقت الدماء.. وسقطت الخلافة الراشدة، واغتصب معاوية بن أبي سفيان الحكم وحوّله إلى ملك عضوض يُتوارث.. فهبّ رجال لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، ورفضوا الرضوخ للأمر الواقع المرّ، فجاهوا سلطة أحدثت بدعا منكرة وتزييفا كبيرا للحقائق، وأبرز هؤلاء وأولهم:

* عبد الله بن وهب الراسبي؛ الذي كان شعاره:

أنا ابن وهب الرّاسبيُّ الشاري

أضرب بالسيف لأخذِ الثّار

حتى تزول دولةُ الأشرار

ويرجعَ الحقُّ إلى الأخيار

وقد أيقن هؤلاء أنّ إعادة الأمور إلى نصابها وإقناع الناس بفساد الحكم الذي لا يحكم بما أنزل الله لا يكون إلا بنشر العلم؛ فكان الإمام جابر بن زيد التابعي الجليل الذي أفزعه انسياق الناس وراء خدع السلطة الأموية وزخارفها.. فقام معلما وبدأ يُكوّن خلايا الدعوة، وهي في الحقيقة تنظيم تعليمي أساسا.

جمع تلاميذ الإمام جابر ما تلقوه عن شيخهم في كتاب من عشرة أجزاء، سُميَ بـ: (الديوان) ضاع كثير منه، وما بقي منه جمع في كتاب: «فقه الإمام جابر»، وفي كتاب: «من جوابات الإمام جابر بن زيد»؛ ترتيب الشيخ سعيد بن خلف الخروصي.

* ترك لنا عبد الله بن إباح رسالة هامة، بعث بها إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان؛ ذكره فيها بالحقّ ويبيّن له بصراحة ووضوح وبالدليل القاطع الناصع خطأ المنهج الذي يسلكه الحكام الأمويون، ويدعوه إلى الحكم بما أنزل الله، والرسالة مليئة بالاستشهادات بآيات القرآن الكريم.. ترى يا أمة اقرأ؛ هل قرأنا هذه الرسالة؟

* أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة يكرس حياته للتعليم وإعداد الدعاة: كان يدرّس في مجالس سرية في سرداب؛ حيث جعل في مدخله سلسلة وأخذ يصنع القفاف تمويهها...

* وله ثلاثة مجالس:

— مجلس عام؛ ودخوله مباح لأيّ شخص من أهل الدعوة.

— مجالس المشائخ: وهو مجلس تخطيط وتنظيم للدعوة.

— مجلس تكوين حملة العلم إلى المشرق والمغرب.

* أول داعية دخل شمال إفريقيا للدعوة بمذهب أهل الحق والاستقامة سلمة بن سعد، وكانت مقولته الرائعة شعارا: «وددتُ لو ظهر هذا الأمرُ يوما واحداً من أول النهار إلى آخره؛ فلا آسف على الحياة بعده».

يقول الشيخ علي يحيى معمر: «انطلق سلمة بن سعد من جزيرة العرب إلى إفريقية وحيدا منفردا، يقتحم المجاهل ويدخل القفار ويغشى المجتمعات التي لا تعرف له جنسا ولا لغة... وليس له من سلاح في كل ذلك إلا ذلك الإيمان الذي غمر قلبه، وتلك المعرفة الشاملة لكتاب

الله وسنة رسوله ﷺ، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ولم يمض عليه عشر سنوات حتى كانت دعوته تنتشر ما بين تلمسان وسيرت، وحتى كان المذهب الإباضي مذهباً لأغلب السكان في ليبيا وتونس والجزائر!!».

هذه ثمرة مجهود رجل واحد؛ فيا سبحان الله كيف حقق الله له ذلك لولا التزامه بآية: ﴿اقرأ﴾.

* ومن تلامذة أبي عبيدة الذين قاموا بمجهود فرديٍّ للدعوة قبل حملة العلم إلى المغرب: ابن مغطير النفوسي الجناوني.

وتذكر المراجع أن عبد الرحمن بن رستم وهو شاب صغير في القيروان يتطلع إلى طلب العلم يخبره رجل من أهل الدعوة: «إن كنت تريد العلم بما كُلفتَ به، وعلّقَ مطلبُهُ بخاطرِكَ فدونك أرضَ البصرة؛ فإن فيها رجلاً عالماً يُكَنَّى أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمه التميمي، فإنك تجدُ عنده ما تطلب»، وفعلاً فقد شدَّ الرحال إلى البصرة...

حملة العلم إلى المغرب

وهم خمسة:

- 1- عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي.
- 2- أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري اليميني.
- 3- عاصم السدراقي، من سدراتة غربي الأوراس.
- 4- إسماعيل بن درار الغدامسي (غدامس جنوب طرابلس) (سأل أبا عبيدة 30 سؤالاً).
- 5- أبو داود القبلي النفزاوي (نفزاوة جنوبي تونس).

قيام الدولة الرستمية: في تاهرت سنة: 160 هـ

كثير من الدول يقيمها الثوار المغامرون؛ بغية التسلط والتملك والاستيلاء على الثروة.. ولكن الدولة الرستمية دولة يقيمها العلماء وطلبة العلم... يقول أحد المؤرخين: «وبلغ المذهب الإباضي أوج عظمته العلمية والسياسية؛ حيث كان أساساً لحضارة لم يشهد المغرب الأوسط مثيلاً لها من قبل».

نظام حلقة العزابة:

بعد سقوط الدولة الرستمية وبعد استقرار الإباضية في المناطق الداخلية أسَّ الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي حلقة العزابة، وهي حلقة في أصلها لطلبة العلم الذين كان الشيخ يرتحل بهم في مناطق أريغ ووارجلان ووادي مزاب، في حلقة علمية متنقلة نادرة...

أهداف التربية عند الإباضية:

1- الإمامة: يرى الإباضية أنه يجب على الأمة أفرادا وجماعات أن يطلبوا العلم ويعملوا

من أجل تحقيق الإمامة العادلة وتنصيب الإمام الذي يحكم بما أنزل الله.

يقول الشيخ أبو عمار عبد الكافي في الموجز: «فرض الله الأمر والنهي والقيام بالعدل وإقامة الحدود علة ما بيَّنه في كتابه، فاجتمعت الأمة على هذه الحدود مع وجوبها، فهي لا تقام إلا بالأئمة ووُلّاهم، فثبت أن عقد الإمامة على المسلمين واجب وحق لازم».

ويفضل الإباضية أن يطلق على الحاكم لفظ إمام استنادا إلى قوله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ [سورة الفرقان: 124].

2- العقيدة: وتؤخذ من النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة، وهي القرآن الكريم أولا، والسنة النبوية ثانيا.

3- إعداد الدعاة: قال الله تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن﴾.

وقال تعالى: ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾ [سورة فصلت: 33].

حيث انطلقت الدعوة الإباضية في إعداد الدعاة الذين امتازوا بالتطبيق العملي للمذهب، واتبعوا مسلكا من مسالك الدين؛ وهو الكتمان الذي يقوم على إقامة الحلق العلمية السريّة، وهؤلاء الدعاة سيقيمون أركان الإمامة الإسلامية، إمامة الظهور وتبليغ مفهوم الإسلام الحق.

الوسائل:

سعى الإباضية إلى تبليغ دعوة الحق عن طريق:

أ- التجارة: كان التاجر الإباضيّ يعرض في تنقله وتجواله سلعتين؛ سلعة الله الغالية: الدعوة إلى الله، وسلعه وبضائعه. وكان يهّمه أن يربح الأولى ولم يكن يبالي إذا خسر الثانية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؛ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [سورة الصف: 10-11].

فقد نشر التجارُ الإباضيةُ الإسلامَ في ربوع المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وانطلقوا جنوباً نحو الصحراء وغرب إفريقيا والسودان، وما وجود الشيخ عبد الحميد الفراني، أو العالم الكبير الذي بعثه عمرو بن فتح - قاضي نفوسة - إلى السودان إلا دليل على دخول بعض ممالك السودان في الإسلام.

* تذكر كثير من المصادر أنّ أول داعية إباضيّ نشر الإسلام في غرب إفريقيا هو: عليّ بن يخلف المزاتي، فقد سافر إلى غانة سنة: (575هـ / 1179م)، فالتقى بمكلمها وكان مشركاً، ويذكر الشماخي أنّ القحط أصاب بلاده واستغاثوا فلم يغاثوا، حتى طلبوا من الشيخ عليّ أن يدعو ربّه ففعل، فلما أصبح عظم المطر فأسلم الملك وتبعه قومه. وقد عثر في مدينة نواكشوط في موريتانيا على قبور تضمّ عُمَلاتٍ وأواني يرجع تاريخها إلى القرن الثاني للهجرة من أصل رستميّ؛ إذ كان من عادة سكان إفريقيا في تلك العهود أن يدفنوا الغرباء بما معهم من بضائع وأموال، لعدم معرفة هويتهم، وعثر فيها على أسماء تجار إباضية لا قوا حتفهم في أوغدست ومالي والنيجر.

ب- الحج: من وسائل نشر الإسلام وأخذ العلم والالتقاء بالعلماء الحجّ؛ موسم الحج مناسبة لالتقاء الإباضية من مواطنهم المختلفة، حيث يتفقّدون أحوالهم ويستفتون علماءهم، ويعرضون الحقّ على غيرهم...

ج- المناظرة: ناظر الإباضية مخالفينهم فأفحموهم بقوة الحجّة والدليل، وقد اشتهرت في ذلك مناظرة أبي نوح بن زغل القسطليلي مع ابن حينا خمو المعتزلي في بلاط الصنهاجي المنصور بن بلكين بن زيري.

د- خطب الجمعة: من وسائل نشر الدعوة خطبة الجمعة، يقول الباروني في الأزهار الرياضية: «وكان لأئمة الدولة الرستمية دواوين خطب للجمع والأعياد، إذ كانوا يخطبون بأنفسهم ولا يعيدون خطبة خطبوا بها قطُّ».

ه- تأليف الكتب: اهتمّ الإباضية بتأليف الكتب، وإقبالهم على التأليف دليل على شغف الناس بالقراءة والمطالعة، يقول البرادي في رسالة في كتب الإباضية - وقد أمضى أربعة أشهر يتتبع مكاتب جبل نفوسة - فيقول: «لم أذق فيها نوماً إلا فيما [بين] أذان الفجر الأوّل إلى أذان الفجر الثاني.. فنظرت في أثناء ذلك من كتب المذهب فإذا نحو من ثلاثة وثلاثين ألف جزء».

فبالإضافة إلى التأليف الفردي كان هناك التأليف الجماعيّ ديوان الغار (12 جزء)، وديوان الأشياخ (24 جزء).

خاتمة:

وبعد هذه الجولة في التاريخ العلمي عند الإباضية واهتمامهم بالعلم وتطبيقهم لمبدأ: ﴿اقرأ﴾، وما هذه المحاضرة الموجزة إلا فتح للشهية؛ شهية القراءة، وأمامنا مكتبة عامرة زاخرة في مكتبة الشيخ عمي سعيد حواشة، ومعرض لبيع الكتاب الإباضي المقام بمناسبة هذه التأبينية بمعهد عمي سعيد، فهلموا للاستفادة..

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته